الهوية في الشعر الشعبي الثوري(نماذج مختارة)

Identity in Revolutionary Folk Poetry (Selected Models)

عقبة جلول بن سلطان
okba.djbs@univ-dbkm.dz
جامعة الجيلالي بونعامة- خميس مليانة.(الجزائر)

الملخص:

حظي الأدب الشعبي باهتمام كبير يكاد يوازي الاهتمام بالأدب الرسمي من قبل الدارسين والباحثين، لأنه يمثل موروثا حضاريا يشمل كل جوانب الحياة سواء من الجانب الديني أو الاجتماعي أو السياسي أو التاريخي؛ ويعد الشعر الشعبي من أبرز الالوان الفنية في الأدب الشعبي لأنه يعبر عن وجدان الحياة الشعبية العميقة البعيدة عن التصنع أو التنميق، ومن أهم المواضيع التي عُني بها الشعر الشعبي ما يتعلق بقضايا الهوية، ونهدف من هذه الورقة البحثة تسليط الضوء على بعض النماذج الشعرية العامية التي خلدت مقومات الهوية الوطنية المتمثلة أساسا في الدين واللغة والأرض.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الأدب الشعبي، الدين، اللغة، الوطن، الاستعمار.

Abstract:

Popular literature has received a great deal of attention almost equal to the interest of official literature by scholars and researchers, because it represents a cultural heritage that encompasses all aspects of life, whether religious, social, political or historical; The elements of national identity, which are mainly about religion, language and land.

***Key words**: Identity, popular literature, religion, language, homeland, colonialism..*

*** *** ***

المقدمة:

كان الهدف الأول للاستعمار الفرنسي في الجزائر هو أن تكون الجزائر فرنسية إلى الأبد، وكان من لازم ذلك قتل الروح المعنوية في الأمة قبل كل شيء[1]، ولكنه في طريق لوصول إلى تلك الغاية -رغم ما سخره لها من الإمكانات- وجد امامه مقومات الهوية الجزائرية المكونة أساسا من المقدسات الثلاثة؛ الإسلام والعروبة والوطن، ووجد كذلك أمة متشبثة بتاريخها وأمجاد أسلافها، ولقد أسهم الأدب الشعبي عامّة والشعر الملحون بصفة خاصّة منذ أن وَطِئَتْ أقدام الاستعمار على صيانة معالم الهوية الوطنية، والتصدي لمحاولات طمسها أو إدماجها في شخصية المستعمر.

وذلك لأن الأدب الشعبي جزء من كيان الأمة وهويتها الوطنية ووجودها الحضاري، لهذا نجد الشاعر الشعبي عمل على توعية الجماهير والدعوة إلى التمسك بثوابته، «الشعر الشعبي والذّي يسمّى كذلك الشعر الملحون جزء هام من الذاكرة الشعبية، ومقوّم أساسي من مقوّمات الشخصية الوطنية، ظل المرآة الصادقة التّي لم تستطع أن تعبث بها يد الاستعمار الذي عمل كلّ ما في وسعه لتدمير كل مقوّمات هذا الشعب، وكلّ ما يعبر عنها منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر المجاهدة»[2].

ونهدف من خلال هذا البحث تسليط الضوء على جانب من دور الشعر العامي الملحون في الحفاظ على الهوية الوطنية، وتمهيد الطريق لاندلاع الثورة التحريرية، وذلك من خلال استقراء بعض النصوص من الموروث الأدبي الشعبي، وتحليلها واستخراج دوره في هذا المجال، ونطرح الإشكالية التالية:

كيف حاولت فرنسا العبث بالمقومات الوطنية؟

وكيف عبّر الشعر الملحون عن الصمود في وجهه واستغلاله؟

وكيف استغل ذلك في الدعوة إلى الثورة المسلحة؟

والهدف من هذا المقال هو إثبات الدور الهام الذي قام به الشعراء على أنه ضرورة تاريخية، وذلك من خلال بعض النماذج الشعرية التي شكلت وعاء حضاريا أجل الحفاظ على الهوية الوطنية والتي حاول ولا يزال يحاول الاستعمار إبعاد الجزائريين عنها، وذلك من خلال:

- إعطاء تصور واضح لمعالم الهوية الجزائرية.
- الاستفادة من آراء الشعراء وخبراتهم في الدفاع عن الهوية الوطنية.

2. مقومات الهوية الوطنية

1.2 مفهوم الهوية:

إذا تصفحنا المعاجم اللغوية العربية القديمة فإننا لا نجد لهذا المصطلح تعريفا، لكن من خلال تحليله، فإننا نجده مشتقا من كلمة "هو" وهذه الكلمة في لغة العرب تستعمل للدلالة على المفرد الغائب، لكنها في هذا ليست مستعملة بهذا المعنى، أما في المعاجم المعاصرة فإننا نجد لها تعاريف تحمل أبعادا فلسفية وفكرية، فمثلا يعرفها المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة بأنها: "حَقِيقَة الشَّيْء أَو الشَّخْص الَّتِي تميزه عَن غَيره"[3] وبعبارة أخرى "هي كلمة دالة على التمايز أو الخصائص المشتركة في أمة دون غيرها من الأمم"[4].

والأمم "**تتمايز عن بعضها بنهج فكرها، ونظم حياتها، وطراز عيشها، وموضوعة قيمها، ونظرتها لنفسها والعالم حولها، تلك هي**

المحددات التي تعين هوية أمة ما عن غيرها من الامم"[5]

وإذا أسقطنا هذا المفهوم على الأمة الجزائرية، واستخلصنا المكونات المحدد للهوية الوطنية والتي وقع الصراع فيها ين الجزائريين والاستعمار، فإنه يمكن اختزالها في الأقانيم الثلاثة المقدسة، والتي تتمثل اساسا في: **الدين، اللغة، والوطن**، وهي التي يعب عنها بالثوات التي لا تتغير «والثابت هنا لا يخرج عن العقيدة الإسلامية المؤيدة بلغة خاصة، وبوطن ذي ثوابت جغرافية وتاريخية وحضارية معينة وبالثورة التحريرية الكبرى»[6].

2.2 المكون الأول للهوية الوطنية: الدين:

ركز الاستعمار في حربه على الجزائر أساسا على الإسلام، وسعى إلى إضعاف تأثيره في النفوس، فقد كانوا يرون أنه هو العائق الأكبر الذي يمكن أن يهدد وجودهم، فعملوا على مسخ الأمة وإفنائها أو على الأقل إدماجها في حضارتهم، واعتمدوا لهدم الإسلام وسيلتين أساسيتين:

الأولى: نشر الخرافات وتشجيعها بالاستعانة بكل أصناف الدجالين والمشعوذين.

الثانية: فهي نشر الإلحاد في أوساط الشباب بواسطة المدارس النظامية وغيرها[6].

واستطاعوا تشكيك الكثير من المثقفين فضلا عن غيرهم في وجود أمة اسمها الجزائر، واعتقد آخرون أن الاندماج في فرنسا هو السبيل الوحيد للرقي والازدهار، وفي ظل تلك الأزمات،

والحديث عن الثورة في الأدب والشعر الشعبي الجزائري طويل ذو شجون، والسبب في هذا يعود إلى أن الثورة شكلت مصدر إلهام لمختلف الأدباء باعتبارها أبرز حدث في تاريخ الجزائر المعاصر، «ولعّل قصائد الملحون تشكل جزءًا هامًا وكبيرًا من هذا الأدب الذّي يعدّ أحد ملامح تاريخنا، وأحد الأجزاء العامّة منه، فهو يشكل وجها من وجوه الحياة التّي عشناها ونعيش جزئياتها، ليظل شعبنا ممتلكًا لمقومات وجوده»[7]، ولقد تمكن الشعراء من تحريك وجدان الشعب، وزرع في نفوسهم حبّ الدين والوطن وحثّهم على الجهاد في سبيل ذلك، لما هو معلوم في الدين من فضل الجهاد والشهادة في سبيل الله من أجر عظيم عند الله تعالى، يقول الشاعر[8]:

أنسيت دينك وأنسيت أهلك والغير
أنسيت حتى أمك اللي هي أرضك الحنينة
الكافر قدامك عايش في الخير
وأنت عايش في الذل والغبينة
قوم من نومك وحتى أنت غير
باش تحيى وتشرف أرضك العزيزة
جاهد يا عبد وكونك غزير
راها حاجة في الدنيا ما تواتينا
لو تعلتم بقيمة الجهاد كيفاش تصبر
وقيمة الوطن محرر يا أخينا

فنجد الشاعر في هذه المقوعة يحرض الشعب النائم في سباته المحروم من خيرات بلاده، كأنه نسي أنه صاحب هذه الأرض الذي ينبغي أن يتفيأ خيراتها، وهو يشاهد الكفار المتمثلين في الاستعمار الفرنسي الصليبي يتنعم في خيرات البلاد، بينما يعيش الشعب في "الغبينة" وهي كلمة عامية مشتقة من الغبن الذي يعبر عن الحرمان الشديد، ثم يتوجه بخطاب مباشر ليستنهض الهمم ويحثّ الشعب على القيام من نومه الي طال زمانه من أجل أن يحيى حياة كريمة على هذه الأرض، ولقد شكل الدين موردا مهما في الدعوة إلى الثورة من منطلق إيمانه القوّي الذّي المرتبط بعقيدته الاسلامية وبوطنه الذّي يدافع عنه بكل تفان وصمود، وهذا يدّل على أنّ الشعر الشعبي كان يعي أهمية لبنخوة الدينية في تحريك الشعب وبعث الحماس وروح

المقاومة، باسم الجهاد في سبيل الله، ويقول أحدهم وكان من الثوار الذي خاض الثورة بلسانه وسلاحه[9]:

بْقوة ربي ننتصر على كيدهم الكافر
والله ايكون عون الصابرين
اتفقنا درنا العهد مسطر
على ذا الأمر نسير ما دمنا حيين

يصف الشاعر المشاعر والروح القتالية عند الثوار، وأنها تستمد قوتها من إيمانها واعتمدها على الله تعالى، وأن الصبر واليقين بالله هو السلاح الكفيل بنصرهم على كيد الاستعمار، ويؤكد على صدق العزيمة والثبات في مواجهة الاستعمار، لأن هذا المبدأ والشعار هو الذي اتفق عليه الثوار، وتعاهدوا على الوفاء به ما داموا أحياء.

ومن خلال هذا نلتمس مدى الارتباط بين الدين والوطن الذّي دافع عنهما الشعب الجزائري بالنفس والنفيس، لأنّ الإسلام والجهاد كان هو المحرك الأساس الذي انطلق منه جماهير الثوار، كما يبين مدى معرفة الشعر الملحون لهذه الحقيقة التي استغلها في تعبئة الشعب للاتفاف حول الثورة فيخوضها من منطلق إيمانه لأنه هو «المعيار الأساسي الذّي يحدّد هوية انتساب الفرد الجزائري، وليس مجرد الانتماء إلى الوطن، ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام هو الهدف الأسمى من النضال، وبتعبير آخر كانت الفكرة الوطنية مزيجا من العقيدة الدينية والروح الوطنية»[10]

3.2 المكون الثاني للهوية الوطنية: العروبة:

لقد عرفت العروبة طريقها إلى الجزائر مع الفتح الإسلامي، وارتبط وجودها بوجود الإسلام، والعروبة بُنيت في الجزائر على أسس ثابتة من فالدين عربي، واللغة عربية، والكتابة عربية، والآداب عربية، وقد كان الهدف الأول للاستعمار الفرنسي في الجزائر هو أن تكون الجزائر فرنسية إلى الأبد، ولكن وجد أمامه حصن الإسلام والعروبة، وتقدم بعض ما يتعلق بالجانب الإسلامي، وأما فيما يختص بالعربية، فكان الاستعمار يرمي "إلى توهين العربية وضربها بالبربرية، ليتمَّ له ما يريد من محوٍ واستئصال لهما معا، وإنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة، وممسكة الدين أن يزول، ولأن لها كتابة، ومع الكتابة العلم والأدب، ومع الأدب التاريخ، ومع كل ذلك البقاء والخلود، وكل ذلك مما يقُضّ مضجعه، ويُطيِّر منامه، ويُقصِّر مقامه"[11]، وكان من جرائمه في حق العروبة:

- غلق جميع المعاهد التي تدرسها، وجعل اللغة الفرنسية اللغة الرسمية في دوائر الدولة.
- إصدار قانون يعدُّها لغة أجنبية في عقر دارها.
- تشكيك الجزائريين في عروبتهم، فزعموا لهم أحيانا، أنهم من بقايا الرومان، وأنهم من أصل البربر، وأنهم أرباب البلاد الأصليين، أما العرب فهم غرباء أبناء الصحراء.[12]

ومع تسخيرهم لكل الإمكانات فإنهم لم يفلحوا في فصل الجزائريين عن لغتهم، فظل الجزائري عربيا يعتز بعروبته، والأدب الشعبي وإن لم يكن بالفصحى إلا أنه في الحقيقة وعاء ورافد من روافد القافة العربية في الجزائر، لأنه نُظم بفكر علابي وإن كان فيه تجاوزات لغوية ونحوية وصرفية كما تشير إليه أحد الدلالات من كلمة "ملحون" لكنّه يتفق مع الشعر الفصيح في الهدف الأسمى وهو محاربة الغزو الثقافي وتكريس استبدال العربية بالفرنسية من أجل طمس الهوية والوطنية الأصيلة، وفي هذا الصدد

يقول الشاعر الشعبي"عبد الحميد عبابسة" في قصيدة عنوانها "الغزو الثقافي المنجوس" قائلا[13]:

تركو التقاليد والعادات
فقدو الروح الوطنية
الغزو الثقافي كاسيهم
ابليس بأخلاقه يلعب بيهم
في الدين والوطن منسيهم
تايهين وعقولهم ساهين
تركو اللغة العربية
يتكلـــمو بالأجـــنبيـة

فيعتبر الشاعر أن الغزو الثقافي لا يقل خطورة عن الغزو المسلح وانه صورة أخرى من صور الاستعمار، يهدف إلى مسخ العقول وجعلها تنسى تاريخها وعاداتها وتقاليدها ودينها ولغتها، وكلّ شيء مقدس عندها، وخصصت اللغة العربية بالحرب من الاستعمار ومحاولة استبدالها بلغته لأنها الوعاء الثقافي الذي يربط المسلمين مهما اختلفت لغاتهم الأصلية، فالعربية هي لغة القرآن الذي وحد جميع المسلمين وهي «قيمة وطنية فاعلة في بناء الذّات وسلامتها وشدّة تماسكها، وهي اللغة التّي تعرضت لهزات عنيفة أفقدها السلطة على اللّسان السائد في الوطن»[14]، وحاول الاستعمار استبدلها بلغته في عقر دارها حتى أصدر بعض القرارات التي تنص على اعتبارها غريبة في وطنها. وهذا يؤكد أن الشعر الشعبي وإن لم يكن من الفصيح إلا انه عبّر عن واقع مرير ومؤلم عاشته الجزائر ولا تزال تعاني من مخلفاته إلى اليوم ونستطيع أن نستشف من خلال هذا النص كيف أصبح الشعر الشعبي قوة مساندة للفصحى ضدّ محاولات الطمس والإدماج التي مارسها الاستعمار بكل ما أوتي من قوة.

2.4 المكون الثالث للهوية الوطنية: الوطن:

إن حب الوطن غريزة جُبلت عليها النفوس، ولهذا كان النفيُ والجلاءُ عن الأوطان معدودا من أشد العقوبات، فالإنسان في طفولته يحب أهله وبيته وقريته، لما يرى من حاجته إليهم وما البيت والقرية إلا الوطن الصغير، فإذا دخل ميدان الحياة، وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله، ووجد فيهم لسانه ووجدانه وأخلاقه، شعر نحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لأهله في طفولته لما فيه من غريزة حب الذات وطلب البقاء، وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير، ومحبته لهم في العرف العام هي الوطنية[15]، وكلما توحدت الكلمة والصف، زالت النظرة الفردية، وأصبحت الغاية هي خدمة الوطن قبل كل شيء، ف"الذين يجاهدون جهاد شخص واحد لا يعترفون بكلمة: أنت، أو هو، أو أنا، أو أنتما، أو أنتم، فكلها ضمائر في بطون الكتب ليس لها شأن في جهادهم الموحّد وقلبهم الواحد الفرد."[16]

وأرض الجزائر عند أهلها مقدسة، عشقها أبناؤها المخلصون، وهام بحبها أهلها العاشقون، وتغنى بجمالها شعراؤها المُتيَّمون، فتنافسوا في خدمتها، وتفانوا في الذود عنها، وما فتئ الاستعمار منذ أن دخل الجائر يزرع الفرقة ويهيج على الخلافات مستغلا كل ما يمكن أن يُحدث تفرقا من عصبية دينية أو لغوية أو عرقية أو قبلية، وفي المقابل ما زال الغيورون على وحدة وطنهم يحاربون هذا التفرق المقيت الذي يوهن الصف، ويضعف الجهد، معتقدين أن "المعقل الوحيد للقضية الجزائرية، والوسيلة الوحيدة لنجاحها، هو التخلص آثار التفرق الشنيع الذي شتت شمل هذه الأمة الضعيفة فزادها ضعفا على ضعف في وقت تطلعت فيه إلى المطالبة بحقها، فهي فيه أحوج ما تكون إلى جمع القوى

والتئام الشمل واتحاد الكلمة"[17]، يقول أحد الشعراء[18]:

اشهد ياتاريخ وكتب واسطر
أحكي لزمان لي هم حيين
هذا الوطن عزيز واجب يتقدر
عليه انضج للحق كلخرين
ولطالت لعمار والوطن تحرر
أنعيش فيه حرار في أرضنا حرين
هيا يا ثوار وطن الجزائر
للقدام نسير يامنا ضلين

فالشاعر هنا يفاخر بتاريخ الجزائر، هذه الأرض التي العزيزة التي ثار لأجلها الثوار حتى تعيش الأجيال التالية عليها حرة ويتّضح لنا أنّ الشعر الشعبي أسهم تحريك النخوة والعصبية القومية للشعب الجزائري، خصوصا إذا لاحظنا ان كثير من الثوار لم يكونوا من المثقفين الذين يتأثرون بالشعر الفصيح وإن كان الشعر الثوري يعتمد على السهولة في الألفاظ والتراكيب، ولهذا انتعش الشعر الشعبي خصوصا في المناسبات والتجمعات في النوادي والأسواق وغيرها، فقد رافق الشعر العامي الشعرَ الفصيح في النظال وتثبيت المقومات الوطنية، والحفاظ على الهوية الجزائرية، وإفشال سياسة الاستعمار الذّي أراد طمس الشعب الجزائري، أو إدماجه في حضارته الغربية.

5.2 خاتمة:

لقد أدرك شعراء الأدب الشعبي أن الرجوع إلى ينابيع العز الصافية هو السبيل الوحيد للثورة على الاستعمار، فعملوا جاهدين على تنوير العقول ومحو الرذائل التي مكن لها الاستعمار، وتثبيت الفضائل التي جاء بها الإسلام، وورثها الشعب عن أسلافه، فأحيوا النخوة الدينية، ودافعوا عن اللسان العربي، واستغلوا تأثير هذه المكونات المقدسة على استنهاض الشعب الجزائري الذي تعلق بهويته، فاندفع إلى الثورة ليطلب بدمه الحياة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر.

بقي الشعر الشعبي يمثل منبعا ثقافيا، معبّرا عن القيم الراسخة في الشعب الجزائري، محافظا على دوره التوعوي والتاريخي والاجتماعي والسياسي والديني يسجل من خلاله الشعراء واقعهم، كما يشكل مادة تحمل زخما هائلا من المعارف التي تحتاج إلى مزيد من الدراسات المعمقة للإجابة عن كثير من التساؤلات خصوصا تل المرتبطة بالثقافة والهوية

---

(1)ينظر: البخاري حمانة، فلسفة الثورة الجزائرية، ابن النديم للنشر والتويع، ط1، 2012م، ص:58.

(2) أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي، شعر الثورة المسلحة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد،الجزائر، د ت، ص5-6.

(3)مجمع اللغة العربية بالقاهرة(مجموعة من المؤلفين)، المعجم الوسيط، دار الدعوة، ص: 998/2.

(4)ينظر: أمين نايف حسين ذياب، الهوية والتراث، متاح على الرابط: http://www.mutazelah.com

(5)ينظر: المرجع السابق.

(2) عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر- الشعر والسياق المتغيّر الحضاري، دار الهدى، الجزائر 200م، ص74.

(7) منير البصكري، الشعر الملحون في أسفي، منشورات مؤسسة دكالة عبدة للثقافة والتنمية، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001م، ص17.

(8) ينظر: أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي، ص 19.

(9) ينظر: أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي، ص 14.

(10) التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة (1830-1945)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983م، ص 98.

(11)محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص: 428/3.

(12)الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، ص: 136.

(13)عبد الحميد عبابسة، الدّر المكنون في الشعر الملحون، موفم للنشر، الجزائر 1996م، ص: 44.

(14) عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، ص 77.

(15)ينظر: عبد الحميد بن باديس، آثار ابن باديس، ص: 365/3.
(16)محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص: 172/5.
(17)محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص: 305/3.
(18) ينظر : أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي، ص 15.